١- المبحث الأول

انعكاسات العقلانية التطبيقية على الفلسفة

١-١ ميشال فوكو (١٩٠٩-١٩٨٤) M. FOUCAULT:

يعتبر الفيلسوف الفرنسي "ميشال فوكو" من الذين تأثروا بالفيلسوف باشلار، حيث يعد فكر فوكو في كثير من مضامينه ومناهجه امتدادا طبيعيا لمضامين ومناهج باشلار، أو بتعبير آخر هو امتداد للعقلانية المعاصرة المتسمة بالنقدية.

ولهذا نجد فوكو قد استلهم الكثير من مقولات باشلار الفلسفية و الابستيمولوجية بصفة أخص. وإن كان قد أشرنا في المباحث السابقة إلى أن أتباع باشلار قد عملوا على انتقاء الوسائل من عقلانية باشلار أكثر من انتقاد الغايات. وإن كانت الغايات ليست متباينة مطلقا، بل لها نقاط التقاء كثيرة سنقف عليها خلال هذا العنصر.

وإذا كان باشلار قد قرأ تاريخ الفكر الفلسفي والعلمي بصفة عامة دون تركيز وتحديد لعلم معين بالذات، فإن أتباع قد ركزوا جهودهم على دراسة علم ما. وإعطائه الاهتمام والغاية، ولهذا جاءت جهودهم مركزة ومنحصرة حول علم من العلوم، لاحظنا هذا عند جورج كانغيليم عندما تناول علم الطب وعلاقته بالتقنية وسنجد هذا أكثر جلاء ووضوحا عند ميشال فوكو.

لعلنا لا نخطئ القول، إذا كان حديثنا عن تأثر فوكو بباشلار انطلاقا من مفهوم "البنية" Structure، فإذا كان باشلار قد تحدث عن تشكيل وبنية العقل النظرية. فإن فوكو يتخذ من هذه المقولة الفلسفية ليتخذها منهجا قائما بذاته سمي بالمنهج البنيوي، الذي تعني البنية فيه مجموع العلاقات الداخلية الثابتة التي تميز مجموعة ما، بحيث تكون هناك أسبقية منطقية

للكل على الأجزاء. أي أن عنصر من البنية لا يتخذ معناه إلا بالوضع الذي يحتله داخل المجموعة، وأن الكل يبقى ثابتا بالرغم مما يلقح عناصره من تغيرات[١].

إن ميشال فوكو سيوظف مقولات باشلار في دراسته للعلوم الإنسانية، ومنها التاريخية والطبية والأنثروبولوجية. ومن أهم هذه المقولات مفهوم العقبة الإبستمولوجية، فهو عندما يتحدث عن تاريخ المجتمعات عبر الزمن، يشير إلى أنه لا يأخذ شكل الخط المستقيم الوحيد الاتجاه، وإنما يأخذ أشكالا متقطعة مليئة بالتعثرات، فرغم أن سيره تقدمي وليس لولبيا إلا أنه مليء بالقفزات والفواصل. يقول ميشال فوكو:"لقد كان الانفصال علامة على التشتت الزماني الذي كان على المؤرخ أن يحذفه ويقضي عليه، ولكنه أصبح اليوم من العناصر الأساسية في التحليل التاريخي (...) ذلك أن ما يبغي المؤرخ الكشف عنه هو حدود صيرورة ما، وانعطاف خط معين، ونقطة تحول في حركة من الحركات"[٢].

إن هذا الكلام يطلق على مسألة البنيات، التي هي في تحول مستمر، مع أن هذا التحول ليس متجانسا، وأن سرعته واتجاهه خاضعان لتغيرات مستمرة، وهذا يعني أن الزمان التاريخي الذي يثبته البنيويون ليس بالزمان المتجانس ولا هو بالزمان المتصل، أنه زمان يطبعه التنوع والتقطع[٣]. وهي نفس الفكرة التي ذهب إليها باشلار عندما أكد على فكرة القطيعة المعرفية وعلى الانفصال الذي يسم تطور المعارف العلمية.

ونبقى دائما مع مسألة البنية لنرى مع ميشال فوكو كيف صار الملتقى هو الواقع التاريخي الحقيقي للعلوم، وارتدى شكل البنية Structure. فحقيقة

([1]). عبد السلام بنعبد العالي: الميتافيزيقا، العلم والإيديولوجيا، ص١١.

([2]) M. FOUCAULT: cahier pour l'analyse, N: 9, 1968, p 10

([3]) ibid.p19.

علم ما في لحظة معينة من التاريخ، لا تكمن في اللحظة التي ستتعدى الحقيقة، بل تكمن في التقاء هذا التاريخ مع جملة المعارف والعلوم الأخرى منذ اللحظة التي توجب على العالم البحث عن علة وجوده. إن إمكان هذا التلاقي وما يكشف عن طبيعة الثوابت، هما اللذان سيسمحان بتحديد اللحظات ومكانة تعاقبها[1].

يقف ميشال فوكو على قضية العلاقات les relations الموجودة بين العلوم، إنها العلاقات التي تقام بين علم القواعد وعلم الأحياء والاقتصاد. يقول ميشال فوكو في هذا الصدد:"إن كان للتاريخ الطبيعي عند LINNE TOURNEFORT وBUFFON علاقة بشيء آخر غير علاقته بذاته، فإنها ليست علاقة مع علم الأحياء، مع علم التركيب المقارن عند CUVIER أو مع تطورية داروين، بل مع علم القواعد العام عند BUASSE ومع تحليل العملة والثروة كما يتوفر لدى LAW لدى VERON DE FORT BANNAIS أو عند TURGOT"[2].

يمكننا أن نطرح سؤالا حول هذه العلاقة، حول هذا التلاقي بحد ذاته بين مختلف العلوم. هل هو من النوع العلمي أم من النوع التداخلي ANTISCIENTIFIQUE؟.

في الواقع يشمل هذا التلاقي حسب فوكو تحت اسم المعرفة. إنه يشمل شروط انبثاق العلم أكثر مما يشمل واقعه وحقيقته. إن المعرفة في عصر ما هي بالأحرى بنية الفكر في المعنى الواسع أكثر مما هي عقل علمي بالمعنى الدقيق. إذا كانت المعرفة بإمكانها استيعاب واحتواء عقل علمي معين، حقا فإنه يمكننا انطلاقا من باشلار فهم ماهية المعرفة. يرى فوكو في هذا أنه إذا كان

(1). مجموعة من المؤلفين: مداخل الفلسفة، ص ٨٥.

(2) M. FOUCAULT: les mots et les choses, éd Gallimard, Paris, 1966, p

نقلا عن مجموعة من المؤلفين: مداخل الفلسفة المعاصرة، ص ٨٥، ٨٦.

علم ما أتم قطعيته، قد خرج من نسيج الأخطاء الوضعية المعاندة، المتحجرة، التي كانت تحتل مكانه، فإنه يمكننا حين نضع أنفسنا في نقطة العلم الأكثر تقدما أن نتأمل مثلما نكتشف منظرا عاما من علو شاهق في جملة الأخطاء المغلوبة في مجموعها النسقي، إن ذلك سيكون معرفة عصرها في اللحظة الماضية، وفي الواقع أن فوكو لا يفهمها على هذا النحو: فالمعرفة هي اللاوعي الفاعل دائما في عصر ما لأنه متخف دائما، أكثر ما هي المعرفة الموهومة التي يعقبها العلم. إنها بكلام أدق كل بنية الدلالة (اللا وعيية) التي تجيز العلم، أي التي تحتفظ في نهاية المطاف بضبطه ومراقبته، وليست المعرفة شيئا ما يمكن للعلم التقدم للسيطرة عليه، وفي هذا المعنى تفسح الإبستمولوجيا بمعناها الحقيقي المجال أمام علم الآثار(1).

انطلاقا من فكرة اللاوعي التي تحكم وتشكل خفاياه يخلص ميشال فوكو إلى تحديد دور العلم ودور الفلسفة، إذ يعتبر الفيلسوف عالم الآثار، إنه هو الذي سيمد بناء المعنى التام الذي يبتره العلم حيث يظن أنه سيد مضماره، يقول هذا الكلام منطلقا من أنه باستكشاف خفايا العلوم الأدوار تنقلب: فالعلوم هي التي تعيش في رأيه من جهالات وتستوهم حول قدراتها وسلطانها. واللاوعي هو الذي يسيطر بلا شك ليؤدي في نهاية المطاف إلى جعل العلم شيئا ما لا يجد أسسه الخاصة في ذاته، ومنه لا يحتاج فقط إلى شرح منور وكاشف عن مضمون باطن بل يحتاج إلى شرح للعلم غير مستور ومجددا ينقلب التفاوت الباشلاري بين دور الفلسفة ودور العلم(2). وحول هذه النقطة يلتقي فوكو مع باشلار وهي النقطة التي تتفرع إلى فروع منها تحديد دور العلم ودور الفلسفة وكذلك الوقوف على انبثاق العلم وانكشافه وهي القراءة النفسانية التي تكشف عن اللاوعي المتخفي وراء الوعي والذي يعيق الكشف

---

(1) M. FOUCAULT: l'archéologie du savoir, éd Gallimard, Paris, 1969.

(2).مجموعة من المؤلفين: مداخل الفلسفة المعاصرة، ص ٨٦.

عن حقيقة علمية. إن هذا العمل هو ما ضمنه باشلار في كتابه تكوين العقل العلمي مساهمة في التحليل النفساني للمعرفة الموضوعية.

ويذهب فوكو إلى أنه: أليس العلم الحقيقي هو علم قراءة العلامات والإشارات، علم اللسانيات linguistique؟ بالنسبة له ينبغي الوقوف عند هذه الظاهرة المعروفة باسم البنيوية structuralism لأن البعض يتردد في وصفها عن العلوم الإنسانية، رغم اشتغال الكثير من الباحثين في فروع علمية شتى. إن القيام بالتنقيب الأثري عن هذه العلوم كما يريد فوكو في كتابه "الكلمات والأشياء" يعني القيام بما لا تريده العلوم. التحليل النفسي لمراميها السرية، لذاتيتها المتخفية وراء إرادتها الموضوعية. يقول "لاكان Lacan":"لا توجد علوم إنسانية، في المعنى نفسه الذي ينبغي فيه أن يدرك معنى القول، لا توجد اقتصادات صغيرة» إن مجموعة من العلماء قد نقلوا مفهوم البنية الذي توغل في العلوم الإنسانية بمختلف فروعها وهذا في شكل اللسانية البنيوية هؤلاء العلماء منهم "لاكان وفوكو ولفي ستروس". هذا بالنسبة لهم لا يتم بدون تحريرات معينة إذ يرى لاكان LACAN **أن اللاوعي ذو بنية هي بنية اللغة.** وهذا ليس بشكل عام، وإنما بكيفية متخصصة يجعلها التحليل النفسي بنيوية. إن مفهوم البنية يتخذ صورة إبستمولوجية موحدة لعلوم البنية المتوافقة طبعا مع صورة العلوم الإنسانية كما يسميها أصحابها[1].

وما تجدر الإشارة إليه، هو أن علاقة فوكو بباشلار تتخذ صورة المنتقي لمصطلح الإبستمولوجية وتوظيفها في تحليل المعرفة والبحث عن أثريتها. إذ يرى فوكو أن هناك علاقة بين المعرفة وآثاره، فهو إذ يحدد معنى الإبستمية في كتابه "الكلمات والأشياء" قائلا:"إن ما نريد تبيانه هو الحقل المعرفي

([1]).مجموعة من المؤلفين: مداخل الفلسفة المعاصرة، ص ٨٦ وما بعدها.

الابستمية episteme، حيث المعارف منظورا إليها خارج أي معيار يستند إلى قيمتها العقلية أو إلى صورها الموضوعية"[1].

إن هذا النص يوحي بالعلاقة القائمة بين الإبستمية والمعرفة، إنها تحتل مركزا مهما في مفهوم فوكو للمعرفة. هذا المفهوم الذي يستند إلى جملة معايير مخالفة لتلك التي اعتمدها الفلاسفة قديما وحديثا. إن الابستمية بالنسبة لفوكو هي أن "تظهر هكذا تاريخا ليس تاريخ كمالها المتزايد، وإنما بالأحرى، تاريخ شروط إمكانيتها، ففي هذا ما يجب أن يظهر إنما هو في داخل مدى المعرفة التشكلات التي ولدت الصور المختلفة للمعرفة التجريبية"[2]. يحدد فوكو في هذا النص مهمة الابستمية في كونها مهمة تاريخية في الأساس، مهمة تسعى إلى إبراز وكشف شروطها وإمكانياتها. المرتبطة بصورها التجريبية "كل هذا يوحي بأن الإبستمية هي عبارة عن نوع من النظام ordre يتحكم في المعارف التجريبية، مع الملاحظة بأن مفهوم التجربة هنا لا كما يتبادر إلى الأذهان، بل ينحصر في التجربة الإنسانية، التي تتمحور حول التجارب التاريخية متخذة منها موضوعات لها. الشيء الذي يدل على ذلك الربط الوثيق بين الإبستمية والتاريخ"[3].

هناك تشابه بين المعرفة عند فوكو والمعرفة عند باشلار وإن كان هذا التشابه صوريا من حيث كون المعرفة **متغيرة وليست ثابتة** على اعتبار أن العلم يعبّر عن مراحل متطورة من تاريخ الإنسان، إنه في دينامية تاريخية تسعى إلى أن تتشكل في منظومة أو بنية عقلية متحررة من صور الواقعية، وأداتها في ذلك هي فكرة القطيعة التي أبدى فوكو فعاليتها في تجسيده لفكرة

---

(1). ميشال فوكو:الكلمات والأشياء، ت:مطاع الصفدي، سالم يفوت وآخرون، مراجعة جورج زيناتي، مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٠، ص ٢٥.

(2). السابق.

(3). مجموعة من المؤلفين: مدخل جديد إلى فلسفة العلوم، ص ٢١٨.

التقدم كثورة تنفصل عن الماضي، وتبدأ طريقها من جديد. لقد وظف فوكو القطيعة للفصل بين الحقب المعرفية المستمدة من تاريخ الإنسانية، مدعما إياها بفكرة الأركيولوجية (البحث في أثريات المعرفة) والوقوف على تولد المعارف والمعاني والأفكار التي تنحوا منحى البنية وتشكل فيها دائما.

وإذا كان باشلار في جل مؤلفاته يؤكد على أن الحقيقة ليست ثابتة، بل هي في تغير مستمر، إنها تتجدد كلما تجددت نظريات ونتائج العلوم، فإن فوكو يذهب إلى تأكيد هذه الفكرة، وإن كان مجال فوكو هنا ليس هو الحديث عن الفيزياء والطبيعيات وإنما حديث عن حقل آخر من حقول المعرفة هو حقل التاريخ.

ليس المقصود عند فوكو هو إثبات أصل تاريخي ولا وقوفا عند لحظة ممتازة تحددت فيها خصائص الميتافيزيقا وتعينت ماهيتها ليكون تاريخها فيما بعد مجرد انتشار وامتداد لما سبق، ليس المقصود تمجيدا للأصول والبدايات، إذ أن ذلك سيغرقنا في الميتافيزيقا "يحلو للناس هنا أن يعتقد أن الأشياء في بدايتها كانت كاملة، وأنها خرجت من يدي مبدعيها أو في نور أول صباح مشعة، وضاءة. إن الأصل يوضح دوما قبل السقطة، قبل الجسد، قبل العالم وقبل الزمن"(١). إن الميتافيزيقا تنظر إلى الأصل كما لو كان موطن حقيقة الأشياء. فهو "النقطة البعيدة التي تسبق كل معرفة إيجابية، والتي تجعل المعارف ممكنة (...) غير أن الحقيقة التي لا تنفك عن التجدد لابد وأن تخفي من وراءها آلاف السنين من الأخطاء"(٢).

نقف من خلال هذه النصوص على تأثر فوكو بباشلار خصوصا عندما يتعلق الأمر أولا: قراءة التاريخ البشرية معرفة وعلما قراءة نقدية، ثانيا: البحث عن أصول تولّد ونشوء المفاهيم العلمية، ثالثا: رفض النزعة الأحادية

---

(1) M. FOUCAULT: Un Hommage à Hyppolite, Paris, P.U.F, p 148

(2) ibid:p149

والدعوة إلى ثنائية المفاهيم خصوصا عندما يتعلق الأمر بتأويلها. رابعا: الدعوة إلى التعدد والتنوع وجعل الحقيقة متطورة باستمرار.

١-٢: لوي ألتوسير (١٩١٨-١٩٩٠) L. ALTHUSSER:

ألتوسير من المتأثرين بالعقلانية الباشلارية، ويمكن أن نبدأ حديثنا من نقطة مشتركة تجمعه مع باشلار وهي: رفضهما الوصف الظواهري للأشياء أو تفسير التصورات أو أي سؤال ماهوي؟ أو بحث في الجوهر أو اهتماما بالذات لماذا؟ لأن ألتوسير يرى أن الفلسفة تعاني من كونها تعتبر واسطة بين الالتزامات الإيديولوجية والمسائل العلمية. ولهذا صارت مكانتها أو منزلتها ووضعها هو الذي سيصبح المسألة المركزية في تفكيره.

لقد أخذ ألتوسير مقولة القطيعة من العقلانية الباشلارية، وراح يتناول بها الفلسفة الماركسية وقصد من خلالها قراءة الماركسية قراءة تشخيصية symthmal من أجل تمييز الخطاب العلمي عن الخطاب الإيديولوجي، وتوصل إلى أن المادية التاريخية ليست نوعا من النزعة النسبية relativisme الاجتماعية والتاريخية، بل هي **علم العلم** الذي نتج أو تشكل في التاريخ وعرف المفاهيم المؤقتة والنهائية. مؤقتة لأنها تبقى داخل التاريخ الذي يعمل على تصحيحها وتصويبها. **فالتاريخ هو سبب ظهور الحقيقة الدائمة**، وهذا يعود لكتابة وإعادة كتابة المفاهيم التي يتم فيها وفي كل مرة إلغاء الأصل l'origine والماضي le passé، لأنها تستهدف الحقيقة المطلقة. إن ألتوسير في عمله هذا لا يخشى: لا المفاهيم ولا حركية التغيرات ولا إعادة الإنتاج الواسعة للنظريات ولا التصحيحات ولا الاستمراريات التي تتأسس بعد حدث ما[1].

([1]). مجموعة من المؤلفين: مدخل جديد إلى فلسفة العلوم، ص ٣٢٣.

إن القطيعة في نظره مع فيورباخ تنتج عنها علما جديدا هو علم التاريخ، أو المادية التاريخية. ويذهب إلى ضرورة تبيان جديد لهذه القارة التي تشبه بعض القارات وتتميز عنها في نفس الوقت، إنها قارة تتطلب فلسفة جديدة لم يتم صياغتها بعد. وعلى هذا الأساس اعتبر ألتوسير أن كارل ماركس افتتح قارة جديدة، إنها قارة التاريخ، وأسس علما جديدا مشابها في أريه للعلوم الدقيقة وهو علم التاريخ وفلسفة جديدة هي المادية الجدلية(١).

لقد أدخل ألتوسير ضمن دراساته الإبستمولوجية، الفلسفة الماركسية، موظفا في ذلك قراءاته ودراساته لفلسفة باشلار، ومستفيدا من بعض مقولاته، خلص فيها إلى محاولة تحديد كيف يمكن لعلم من العلوم أن ينبثق من التاريخ؟ كيف يتخلص من الذاتية ويقترب من الموضوعية؟. وهي الفكرة التي تحدث عنها باشلار عندما تطرق إلى مسألة تولد ونشوء المفاهيم العلمية وانبثاقها. بحثا عن أصولها المعرفية، وهو في كل هذا اتخذ الطابع الجدلي للفكر والسمة النقدية له.

أما فيما يخص مفهوم العلم فإن ألتوسير يحدده في كتابه "الفلسفة وفلسفة العلماء العفوية" "عملية بنائية يقوم بها العالم من خلال ممارسته، فالعلم إذا ليس عملية تجريد مباشر للواقع، بل هو بناء واقع نظري وأصح من الواقع المعاش"(٢). فإذا كان العلم معرفة بالواقع ووسيلة لتحويله، فإننا لا ينبغي حسب ألتوسير أن نفهم هذا التحويل هنا على أنه تحويل تقني كما قد يتبادر إلى أذهان البعض، أو كما يعتقد به الكثير من الفلاسفة والعلماء. بحيث يجعلنا "سادة على الطبيعة" ممتلكين لها، **وإنما يقصد بالتحويل هنا تحويل معرفي. تحويل من شأنه أن ينشئ موضوعات للمعرفة**(٣). وهي نفس

([1]). المرجع نفسه: ص ٣٢٥.

([2]) Louis Althusser: philosophie et philosophie spontanée des savants, éd: Maspero, 1973, p 07.

([3]). عبد السلام بنعبد العالي: الميتافيزيقا، العلم والإيديولوجيا، ص ٩٤.

الفكرة التي طرحها باشلار عندما تحدث عن مفهوم الواقع، مشيرا إلى ضرورة عقلنة هذا الواقع، ليتحول من واقع أنطولوجي إلى واقع معرفي.

وفي مقابل هذا المفهوم الذي يقدمه ألتوسير للعلم، فإن الإيديولوجيا تعمل ضد نشوء المعرفة، كل معرفة حقيقية تقوم دائما ضد يقين البداهات وامتلاء الفكر الدوغمائي. إن المعرفة الحقة كما يذهب إلى ذلك باشلار إنما هي تصحيح للأخطاء، وتقويم للاعوجاج، وكل حقيقة جديدة تولد بالرغم من البداهة. ويظل ألتوسير يقيم مقابلة بين العلم والإيديولوجيا متخذا من مقولة القطيعة أداة. بقوله أن العلم لا يعدو أن يكون ممارسة نظرية، في حين أن الإيديولوجيا تشكل مستوى من مستويات كل تشكيلة اجتماعية؛ معنى هذا أن التمثل الإيديولوجي يخالف تمام الاختلاف التصور العلمي، فالتمثل الإيديولوجي يسعى إلى مليء الفراغ وتوحيد التباين بينما يسعى العلم إلى معرفة الواقع الفعلي، ومجمل القول أن العلم ليس ترجمة للواقع ونسخة عنه كما يعبر ذلك دعاة الاتجاه لاختباري الوضعي؛ وإنما هو إنشاء وبناء واكتشاف. يقول ألتوسير: «لم يعد العلم يعتبر كما لو كان مجرد تقرير لحقيقة عارية متجلية نصادفها أو نكشف عنها، بل إنه إنتاج (له تاريخ) للمعارف، إنتاج تحدده عناصر معقدة منها النظريات والتصورات والمناهج والعلاقات الداخلية المتعددة التي تربط مختلف هذه العناصر"[1].

وهي نفس الفكرة التي قال بها باشلار عندما اعتبر أن العلم ليس تصويرا آليا للواقع، ومرآة تعكس الواقع كما هو من دون تحول أو تغير، بل العلم هو فعل عقلاني نغير فيه هذا الواقع ونقف فيه على العلاقات، ويصير تركيبا وبناء وإنشاء للمفاهيم.

بالإضافة إلى ذلك أن العلم هو الممارسة النظرية المنتجة للمعارف وسيلتها في ذلك التصورات والمفاهيم. ومن يتكلم عن الإنتاج يذكر التحويل.

([1]).المرجع نفسه: ص ٩٩.

إنه تحويل الواقع المعطى، وتغيير المباشر إلى واقع علمي. إن التجارب ليست رجوعا إلى واقع معطى بقدر ما هي إنتاج واقع جديد، هذا الواقع ناتج عن التقدم العلمي.

وفي حديثه في الملاحظة يشير ألتوسير إلى أنها ليست قراءة لكتاب الطبيعة ولا إنصاتا لما تقوله الظواهر، إن التجربة العلمية ليست تحققا تقدم فيه الفرضية الموضوعية موضعة، وفعالية وصناعة للظواهر العلمية. **ليس العالم هو الحكم الذي يحكم على العلم، إنه تلك الصورة المتحولة التي يقدمها لنا العلم عند تحققه**[1].

إن القول بقراءة بسيطة للواقع واعتبار هذه القراءة إنما يعكس مفهوما ساذجا، ويوقعنا في إشكالية يناصبها ألتوسير عداءا شديدا. إنها الإشكالية المميزة لنزعة الوضعية الاختيارية "إن استثمار المعارف باعتبارها جزءا من بنية الواقع الفعلي للموضوع الواقعي هو ما يميز الإشكالية التي تطبع المفهوم الاختياري للمعرفة"[2].

يواصل ألتوسير حديثه عن العلم والمعرفة ويحدد شروطها العلمية، وعلاقتهما بالواقع، وكيف أن العلم ينبغي أن ينفصل عن الأيديولوجيا إذ أن المعرفة لا تكون فقط مثلما تتصورها النزعة الاختبارية أمام موضوع خالص هو الموضوع الواقعي. فالواقع العياني يكون عينا لأنه يكون تركيبا من عدة محددات. إنه وحدة لتنوعات. من هذا الواقع يتجلى في الفكر كعملية تركيب، كنتيجة لا كمنطق، بالرغم من أنه هو المنطلق الحقيقي، ومنه منطلق الرؤية المباشرة. **ويخلص ألتوسير إلى ما خلص إليه باشلار قبله إلى أن الواقع العلمي، ليس هو الواقع المعطى، بل هو واقع خفي، الإدراكات المباشرة ما هي إلا خدعات يفرضها الوهم.**

---

(1). عبد السلام بنعبد العالي: الميتافيزيقا، العلوم الإيديولوجيا، ص ١٠٠، ١٠١.

(2) Louis Althusser: lire le capital TI F. Maspero, p 42.

وعليه تكون المعرفة إيديولوجية كلما كانت أكثر التصاقا بالواقع، بل هي إحداث تغيير معرفي فيه. **فالعلم ينتج المعرفة الموضوعية ويعلن الحرب على الأوهام الإيديولوجية**[1]. إذ أن الأيديولوجية على عكس المفهوم العلمي للمنظومة، ترفض فكرة التناقض، إذ أنها تحاول أن تفك التناقض وتقدم له حلا وهذا بإغفاله. ومعنى هذا الكلام أن بنية الكلام الأيديولوجي تخالف أشد الاختلاف بنية الكلام العلمي ولهذا يخلص ألتوسير إلى أن عملية التحليل تكون علمية إذا بينت روابط الواقع المعاش، بشروطه المادية. وهو في العكس يكون إيديولوجيا إذا ما اقتصر على تبرير الواقع باعتباره في ذاته كما لو كان يحمل معناه في ذاته دون أن نرجعه إلى الشروط المادية المحددة.

كل هذا حسب ألتوسير ما يجعل الإنتاج العلمي يتم على خلاف الأيديولوجيا. إن الأيديولوجيا تكون تحت مراقبة الحال التي يكون العلم قد وصل إليها. إنه يخضع إذن لقواعد معينة في الحقل العلمي. يخلص ألتوسير من هذه التحليلات إلى أن **العلم طريق مفتوح**، عكس الأيديولوجيا التي هي طريق مغلق. ولهذا فكل علم ينبعث في تاريخ النظريات يتضح كعلم. يبين هذا التاريخ ماضي العلم النظري الذي ينبغي أن ينفصل عنه على أساس أنه ماضي بعيد عن الحقيقة، يقول ألتوسير حول هذه النقطة:"إن الممارسة النظرية لعلم ما يتميز دوما وبوضوح عن الممارسة النظرية الأيديولوجية التي تطبع ما قبل تاريخ ذلك العلم، وإن هذا التمييز يتخذ شكل انفصال (كيفي) نظري وتاريخي، يمكننا أن نطلق عليه مع باشلار قطيعة ابستمولوجية"[2].

وما تجدر الإشارة إليه هو أن هناك عنصرا مشتركا بين ألتوسير وباشلار في العلوم الإنسانية يتمثل في استعمالها لمفهوم البنية، وإن كانت البنية عند ألتوسير هي بنية هذه السلطة أو المرتبة من التشكل الاجتماعي، والموضوع لا

([1]). عبد السلام بنعبد العالي: الميتافيزيقا، العلوم الإيديولوجيا، ص ١٠١.

([2]) Louis Althusser: pour Marx, Paris, F. Maspero, p 168.

يخلو من تأثير على شكل المفهوم وإذا صرفنا النظر في الآن عن طبيعة الموضوع الذي تتخذه وتتناوله هذه النظريات وعن مجلاها النسقي. مرد ذلك استقلال العلوم عن بعضها البعض أكثر من الخلافات الجوهرية بين العلماء وعلومهم.

يسعى ألتوسير في إشارته إلى هذا التلاقي الفعلي بين العلوم والذي يقدمه في سلسلة نظرية بين الأبحاث الراهنة في علوم نظرية وتاريخية عديدة إن يتوخى منه التوحيد الموسوعي للمعارف، والتي تجمع علوما شتى من طبيعية ومادية. **ومن هنا يبدأ ألتوسير حديثه عن ما يسميه تجديد العقل العلمي الجديد.** هذا التجديد يعطي بالنسبة لألتوسير ظاهرتين متناقضتين مظهريا. إن جهة منه تتمثل في أن الحديث عن العلوم يصير مشعا. على أساس أن **كل علم ينغلق على نفسه.** ويؤسس لذاته لغته الخاصة في ميدانه، منفصلا عن غيره. بل ومنه يستبطن هذا العلم ابستمولوجيته الخاصة في ميدانه منفصلا عن غيره.

ومنه لا يكون تدخل الفيلسوف ممكنا، بل يغدو مستحيلا. ما لم يستعر- إن صح التعبير- صورة العالم متكلما بلغته دون لغة أخرى.

وإذا كانا مفهومي الأنموذج والبنية منتشرين، فإنهما ينزعان في هذه الموسوعة العامة للعلوم إلى الحلول في كل العلوم محل المفاهيم الإبستمولوجية القديمة: مجرد abstrait، عيني concert، نظري théorie، واختباري expérimental، عقلاني rationnel ، واقعي réel. بهذه الصورة تجري الإبستمولوجية واحدة في الموسوعة كلها. زد على ذلك أن كل العلوم يحيط بها نسق واسع من التواصلات واللغات[1].

لقد أخذ ألتوسير على عاتقه انتقاد النزعة التجريبية، التي يصفها بالأسطورية mythologie الجديدة للعلوم انطلاقا من اعتقادها بأن الحقيقة تهبط من السماء (بتعبير مجازي). هذا لميدان الذي يكافحه ألتوسير هو

([1]).مجموعة من المؤلفين: مداخل الفلسفة المعاصرة، ص ٨٨.

ميدان المادية matérialisme المقابلة للمثالية idéalisme في نظرية المعرفة الموسومة حسب رأسيه بأنها **طريقة إنتاج المعارف** نقول هذا الكلام لأن جل أعمال ألتوسير انصبت على تأمل الإبستمولوجية الماركسية بوصفها علما. هذه الابستمولوجية التي تستخلص دروسا منها بخصوص العلم عامة. يندهش ألتوسير من مسار إنتاج المعارف، إنه يرى ما يصلح المعارف العلمية أيضا، إنه يحدد شروط العلم في المراس الخاص به. رغم هذا إلا أنه يخضع كغيره (العلم) من أنماط النشاط البشري لمجموعة القواعد العامة التي يحددها له مفهوم الإنتاج منها **تحويل لمعطى ما بواسطة الأدوات الإنتاجية**. وهنا تبدو نقطة التقاء باشلار مع ألتوسير، إنها قرابة بين تصور ألتوسير هذا لإنتاج المعرفة بين تصور باشلار للابستمولوجيا. تبدو هذه القرابة بينة واضحة، **بالاستناد إلى التصور الذي يقدمه باشلار للعلم أو للعالم كعمل، العلم القائم على البرهان**. والقصد في هذا هو دفع كل معرفة إلى حالة يصير تقريرها الاختباري ممكنا. وتصور مجموع العلماء والباحثين كأنهم **"اتحاد شغيلة البرهان"**. يخلص ألتوسير من هذا التحليل **إلى ضرورة تناول ميدان العلم بكيفية مادية ويترتب على هذه التجريبية عدم اعتبارها الحقيقة، إلا بوصفها توافق العقل، والموضوع المعلوم**(١).

إن مقصود ألتوسير هذا هو أن يضع الأبحاث الراهنة والتي تناولت أعمال وفلسفة ماركس في عداد الأعمال المنتسبة إلى العقل العلمي الجديد، ومن هنا يجد كل قارئ لهذا الفكر أن كل المفاهيم الباشلارية لها معادلها في ابستمولوجيا الماركسية(٢).

---

(1). المرجع نفسه: ص ٩١.

(2) Louis Althusser: pour Marx, p..

وخلاصة القول فإن التقاء فلسفة ألتوسير مع فلسفة باشلار هي فكرة القطيعة المعرفية، قطع المعرفة العلمية عن الأيديولوجيا، وعلى ضرورة انتصار العلم على الأيديولوجيا. إن العلم بالنسبة لألتوسير ولد كجدلية. لقد انكب العلم على اقتناعاته الذاتية الأولى مثلما ينكب على معطى يفترض تحويله، وثلما هو الأمر عند باشلار فإن الميدان لا يكون حرا دائما عندما تنشأ وتتولد مفاهيم العلم. إذ أن الخطأ موجود هنا من قبل، وهو الذي يستخدم العلم كمادة له، وعليه ليس الواقع ولا مشاهدته واختباره هو منطلق وبداية العمل العلمي. فهي إذن معارف غير علمية، بل أيديولوجية، إنها معارف مشوهة لمقتضى الحاجات القائمة مقام المفكر في المجتمع. **ومن هنا فإن العلم ينتج المعارف المتحولة التي تعكس الواقع، شأنها في ذلك شأن المعارف الأولى.**

يرى ألتوسير أن التناقض الأساسي الموجود بين التجريد الأولي للمعارف، أو المفاهيم الرئيسية بين الطابع العيني للمعارف الناجم عن تطبيق مفاهيم أخرى تلعب دور أدوات إنتاجية (مماثلة مع أدوات الإنتاج المادي)، على هذه المفاهيم المجردة إننا نبقى في الحالين في مجال النظرية théorique. ولهذا يتحدث ألتوسير عن مجرد إيديولوجي ومتعين الإيديولوجي. ومن هنا بالذات يمكننا أن نتأمل في مسيرة العلم عند باشلار خصوصا عندما نجده يطبق العقلاني دائما من أجل إنتاج وإنشاء معارف متخصصة، نوعية، قادرة على استيعاب والاستجابة للاختبارية. بتعبير أوضح معارف قادرة في حد ذاتها على توليد عملية اختبارية. ومنه **فالواقع الذي يتوجه إليه العقل العلمي هو على الدوام عقلاني مطبق ومتحقق**[1].

إن ما يمكن استخلاصه من هذا العرض الموجز، هو أن ألتوسير يعتبر فعلا من أتباع باشلار، إنه امتدادا للعقلانية الباشلارية في نظرتها.

أولا: للعلم.

([1]). مجموعة من المؤلفين: مداخل الفلسفة المعاصرة، ص ٩٢.

ثانيا: للواقع.

ثالثا: للتطبيق.

رابعا: انتقاد الوضعية.

خامسا: انتقاد المثالية.

سادسا: الوقوف على أصول المعارف وتولدها.

سابعا: الوقوف على جدليات المعارف.

ثامنا: القراءة الإبستمولوجية للفكر الفلسفي والعلمي.